

عصام عبد المحسن الطبقات السبع

الصورة الشعرية بين الشعري والسردى

للشاعر المصري «عصام عبدالمحسن» صدرت مجموعة شعرية جديدة عن دار النخبة المصرية لسنة 2018م، تحت عنوان «بين طبقات روحي السبع» سعى من خلالها الشاعر الى الاهتمام بالصورة الشعرية مع الحذر في استعمالات الألفاظ الموحية ومما يظهر براعة الشاعر في امتلاكه ادواته تلك التشبيهات والاستعارات وحسن التعبير عن الانفعالات النفسية بطريقة محبة لا سيما وأن حسن البيان والمجاز والتشبيه أولى القواعد التي يتعقبها النقاد وهي قديمة في النقد العربي، فضلا عن اهتماماته بأمور بلاغية أخرى، وقد ارتبط هذا عندهم بنظرتهم إلى حسن البيان والمجاز والتشبيه، وربط النقد جودة الصورة الشعرية وبلاغتها على حجم الأساليب البلاغية والابتعاد عن المباشرة التي تقرب الشعر من السرد .

إن التجريد ومعايشته يبقى الهم الأكبر الذي يشغل المبدع وهي نوعية أخرى من الجماليات فيها تتشكل الصورة الشعرية في القصيدة الحداثيّة على أساس من الخيال الذي يتناول لبنتها من الواقع ليضعها مع الفن .

ولا يمكن اعتبار النص الشعري قد تكامل فنياً ما لم يستحضر مقومات الصورة الشعرية وأسس بناء الرؤيا الجمالية لمكونات كل نص من النصوص بترابنية ذكية توحد النص في وحدة .

ان الذي يعطي للصورة فاعليتها ليس حيويتها كصورة بل كونها تمثل حادثة نوعية ترتبط بإحساس الشاعر ذلك ان الصورة تنقل إلينا انفعال الشاعر أو تجربته الشعرية، ولقد تطور الاهتمام بالصورة الشعرية في النقد الأدبي الحديث ولم يحدث ذلك إلا بانفتاح النقاد العرب على النقد الأوربي الذي اهتم بدوره بالصورة الشعرية اهتماما بالغاً منذ عصر أرسطو وبالتحديد في كتابه فن الشعر، بيد أن الملاحظ في النص الحديث نزوعه المفرط نحو التنظيرات الغربية للصورة الشعرية مع العلم أن التراث العربي يشكل المادة الاولية التي لا تغد في تدعيم وتطوير ذائقة الشاعر العربي وتنمية موهبته .

يقول الشاعر عصام:

«بخطواته العرجاء، تسلك الليل

لم أعره انتباهي

ملء صدره بشهيق السواد وزفره بقوة... ص 11

هناك تقارب بين طرفي الليل / السواد، إذ إن الشاعر بقوله هذا يوافق صبغة المشبه «الليل» بالسواد الذي يميزه وثمة معنى آخر لهذا السواد «الظلمة» ما هو واقع فعلاً بين الصورة المتخيلة وبين حقيقة الليل.

هذا التشبيه يحمل في تضاعيفه مواصفات المفارقة، إذأما الذي يرومه الشاعر من هذا التشبيه؟ أهو من قبيل شعوره بمقدم الليل الذي يجلب معه الألم والمأساة؟ فالقارئ هنا يطمئن إلى مثل هذا الاستخدام للمفردة لأنها عبرت عن وشائج قائمة بين المكان والمشاعر، بل يجد القارئ أن هذا الاستخدام التشبيهي ينم عن وعي تام في ادراك أبعاد معنى المفردة.

يواصل قائلا:

«ملاحك القديمة ممزقة / وملاحي فاقدة الاكتمال/

ذائبة كل التفاصيل بيننا / والغرفة بالسواد تتسع ...ص13

الذي يجب الاعتراف به إن موقف الشاعر من الوجود يعتمد على ثقافته الخاصة وبهذا فقد تلونت الصورة الشعرية بحسب هذا الموقف من الوجود، وفقا لما عليه الشاعر عصام من سعة في الوعي اللغوي والمعجم الشعري، ففي عصرنا الحديث «كثر الشعراء وقلّ الشعر» وتقلص حجم الصورة وجمالياتها إلا بعض الشعراء ومنهم شاعرنا الذي تخطى المعنى الضيق للمفردة لتتفتح على عديد من العاني ذات الصبغة الجمالية.

في هذه الصورة اعتمد الشاعر على موقفه الفكري والثقافي كان أكثر من اعتماده على تجاربه السائد من الشعر بما بوعي الشاعر في صناعة الصورة الجمالية الموحية.

«ملاحك القديمة ممزقة» تحتمل الجملة تأويلات كثيرة وسعة خيارات الجملة في التأويل تضفي على متلقيها جمالية وتمنحه دورا مكملًا لوضع المعنى الذي يعتمل في نفسه وهذا الأسلوب لا يتقنه إلا شاعر ذكي .

وقد جاءت الصورة استجابة لمتطلبات الصورة الجمالية في شعر الحداثة بحيث أصبحت وحدة وكيانا مستقلا وكلما اتسعت مديات الصورة كلما عبرت عن تناسق لغوي وتعبيري واسع ولنتابع الصورة التالية:

«من أفرغ كل حماقات العالم في عينيك... فلم تبصر؟ امرأتك حين امتصت كل وجوه الماضي / من إسفنج الذاكرة / اغتصبت فيك الناس ... التاريخ / امتصت كل نخاعك والنخوات»...ص 39

ولتحرر البعد اللغوي للصورة والذي ينتمي إلى عالم اللامرئي البعيد عن الواقع، فهي صورة باطنية تنسق عالما وجوديا تنتجه مشاعر ذاتية مختصة بالشاعر الذي يسعى لترسيخ واقعة ما، وهنا تصبح الانفعالات التي تحدثها الصورة في المتلقي بالغة من خلال ذلك الابهام الجميل «من أفرغ؟» هو سؤال فيه من البلاغة المعنوية ما يذهب بالمتلقي الى آفاق تخيلية واسعة .

هو المهم أن الشاعر قد أطر صورته الشعرية بتساؤل ترك للمتلقي خيار الاجابة عليه ومعرفة محمولاته.

وفي صورة جميلة أخرى يقول الشاعر عصام:

نبشت بمخالها الوحدة

بين ركامي / لم يبق بالداخل حي

وجوعها للألفة نهم

والمسافة بين القلب وبصيص العينين

حائط صلد ص 46

إن القصيدة بشكلها الشعري والثري، تعد حالة وجدانية فكرية، يتركز فيها الذهن على نقطة معينة من صورة، من فكرة، من قضية، وهي لذلك تتأثر بزمان الشاعر، وبالبيئة، وبظروف الحياة المحيطة به، لذلك نجد الشاعر عصام قد ركّز على البعد السردى في بعض نصوصه الشعرية حيث تداخل الشعر في النص ومثال ذلك نص «الوقت على العتبات توقف» وهو يتابع بسردية «بطل نصه» إذا صح التعبير «مرتديا ساعة يد». ص 42

إن علاقة السرد بالقصيدة قديمة قدم الشعر نفسه، وقد تحدثت الملاحم الشعرية الأولى في الأدب العالمي عن أبطال وأحداث وسير وأمكنة، وخير مثال على ذلك، ملحمتي الإلياذة والوديسا في الأدب الإغريقي، وملحمة جلجامش في الأدب العربي. كذلك ثمة قصائد في

الشعر العربي بدأ من العصر الجاهلي وصولاً إلى العصر الحديث أو المعاصر، نجد فيها مكونات سردية.

والشاعر في هذا النص اتبع المنهج السردى الذي بدأ من «نقطة الصفر ثم وصل الى ذروة الحدث ومن ثم النهاية» هكذا قصّ علينا شعراً قصة «الوقت» وبذكاء كسب المتلقي لمتابعته والكشف عن سرّ حامل تلك الساعة.

نجح الشاعر عصام في عملية التوصيل المبني على التشبيه والذي يثير في نفس المتلقي الدهشة والاستغراب، فشبّه النخلة بمعرقل الضوء ... ص 35.

وهنا يمكن القول: ان المتلقي عندما يقف على مسافة قريبة من المفارقة لا يجد كثيراً من الصعاب للوصول إلى المغزى الذي يرمى إليه الشاعر من وراء هذا التشبيه المفارق، «

إن تجربة عصام عبد المحسن الشعرية اتسمت باستيعاب اللغة وعبرت عن قيمه أساسية في استخداماتها.

إذ يؤلم الشاعر أن يتحول الكون نحو قيمه الأصيلة وتلك القيم متخيلة فقط في ذهنية الشاعر ومالها على أرض الواقع من وجود، مع شيوع قيم فرضتها الحضارة الوافدة، يفقد فيها الناس أصالتهم، ويندفع كلّ منهم وراء غايته، ويريد الشاعر هنا إظهار الجانب السلبي للمدينة التي

عصفت بالقيم السائدة في الزمن الماضي على أن عملية استدعاء هذه القيم والمبادئ تبقى مجرد أمانى ذلك للعصر متغيرات غاية في التعقيد .
وما نخلص إليه أن هناك تجسيدا للشعرية في هذه المجموعة من خلال الصور الناضجة التي اسهمت في إمكانية التوصيل للفكرة التي يتبناها الشاعر .